

الطبري وقرأؤه

بقلم : منجية السوانحي

مرت مئات السنين واهتمام علماء المسلمين وغير المسلمين منصباً على الفترات الطويلة التي مرّ بها التفسير، وهم يسعون إلى أن يكشفوا عن التطورات التي لا ترتد على عقبيها، والانتظامات الثابتة والظواهر الميالة التي تتقلب عندما تبلغ أوجها بعد أن تتواصل حقبا مديدة، وحركات التراكم والاتباع البطيء والأسس العظيمة الثابتة التي عساها تشابك التقليدي بغلاف من الأحداث(1) للقيام بهذا الجهد يحوز المفسرون والمهتمون بالعلوم الإسلامية أدوات صاغوها هم بأنفسهم في جانب، وتلقوها في جانب آخر كنماذج تساعد على إظهار مدى مساهمة التطورات التفسيرية للتغيرات السيسولوجية والاقتصادية والسياسية وللتكيفات التقنية ونموها المهول. وقد مكنتهم هذه الأدوات من أن يتبينوا داخل الحقيبة التاريخية مراتب ومستويات مختلفة ومتباينة في التفسير، بواسطتها استطاع الإنسان أن يحدد أنماط الثقافة الإسلامية، واطلع على كم هائل من المصنّفات التفسيرية ذات المناهج المتعدّد، كالمناهج الأثري، والمنهج العقلي، والمنهج الفقهي، والمنهج الفلسفي، والمنهج الأدبي، وما إلى ذلك من مختلف المناهج.

وما يهمننا هنا من تلك المصنفات موسوعة شيخ المفسرين الطبري «جامع البيان عن تأويل أي القرآن».

يميل أكثر الدارسين لتفسير الطبري إلى وصفه بالمنهج الأثري الخالص حيث اعتمد فيه صاحبه على الرواية دون الدراية وهذا ابن خلدون يتحدث عن التفسير بالمأثور فيلمح إلى الطبري بقوله : «فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثالهم من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار» (2)، وفي دائرة المعارف الإسلامية إشارة إلى ثلاثة من كتب الرواية : أحدها جامع البيان في تفسير القرآن (3).

مَا مَدَى صحة هذا القول؟ وهل إتباع الأثر هو المنهج الوحيد الذي سلكه الطبري في موسوعته التفسيرية؟

إن المتصفح «لجامع البيان» يدرك لأول وهلة أن صاحبه اتبع فيه المنهج الأثري بالفعل، فاعتمد مبادئ أساسية للتفسير، أصل لها القرآن بنظمه المتميز، وساعد على فك غموضها مناسبات النزول، وهدى إلى الكثير من سبر أغوارها غائبات التنجيم، ولا أعتقد أن الخوض في مثل هذه المسائل، والاستعانة بها يقف عند المعارف الأثرية المحضة، حتى تغيب شخصية الطبري العلمية وآراؤها العقلية، فيحسر في زمرة الجماعين للآراء والناقلين للرواية والأخبار دون تدخل منهم : لأن الهدف الأساسي للطبري من جمع الرويات وعرض الآراء هو استقصاء ما ورد في مدلول اللفظ المفرد، أو الجملة، أو الآية من معان متعددة، ومتغايرة، توقيفية كانت، أو لغوية، أو صادرة عن أئمة التفسير من الثقات، وهي ثمرة للإجتihad بالرأي، كما أنه من غير الموضوعية العلمية أن نصدر أحكاماً على مناهج متبعة، وعلى أصحابها قبل دراسة الأثر دراسة

علمية مستفيضة، والاطلاع على طبيعة مادة دراسته، ومعرفة خصائصها التي قد تفرض على الباحث منهجا معيناً لا يستطيع التجرد عند المفسر بالرأي ذاته (4) فما هي خصائص القرآن كمادة خاضعة للتفسير؟ وماهي خاصيات التفسير؟

1) خاصيات النص :

- أول خاصيات النص هي النظم وما فيه من وجوه البيان التي تتطلب الدقة في النظر والاتساع في المعرفة ليتسنى للمفسر الكشف عن معاني النصوص حسب القدرة البشرية، وتلك المعاني قد لا تنبئ بها ظواهر الدلالات اللغوية، وإنما يكشف عنها التأويل.

- ثانيها خاصية العموم التي تبين أنه خطاب كوني للنفس البشرية، اتسع لمختلف الاهتمامات الإنسانية كالعقائد والمعاملات والآداب والتشريع والتربية وما إلى ذلك.

- ثالثها التنقيص على الهدف الأصلي من وجود الإنسان والإشارات العامة لتلك الغائبات.

- رابعها التسامح الديني وما تضمنته هذه الخاصية من سدّ الأبواب أمام ظاهرة التعصب الديني، والمذهبي، وما يخلفه من أزمات تعود بالضرر على الإنسانية أولاً وعلى الحضارات ثانياً.

- خامسها خاصية الاعتدال، أي الاعتدال في تلبية الرغبات الإنسانية من الجانب المادي ومن الجانب الروحي، وتلك خاصية تحقق التوازن للإنسان وتحفظ له إنسانيته، وقد أفلست المذاهب التي أهدرت الرغبات المادية لصالح الرغبات الروحية ، فالإنسان روح/جسد، والإخلال بأحد الجانبين يورث الاضطراب.

لفهم هذه المميزات وغيرها، ولضمان مسيرتها للتطورات المتتالية وهضمها للمتغيرات المستجدة وجد الاجتهاد — الذي

اعتبره أحد أهم عناصر التفسير — يحقق للنص ديم ومته واستمراره مثل تلك الخصائص تستلزم ثقافة أثرية دسمة، وسعة اطلاع تعكس قدرة المفسر على هضم المعارف، والمزاوجة بينها، واخضاعها للتطور العلمي الذي يشهده عصره، مما ينتج عنه لا محالة اختلاف في وجهات النظر، وتنوع الفهم، وتبيان المذاهب والمناهج حتى وإن كان المفسر أثري المنهج. ومثل هذا العمل لا يتحقق بالوقوف على المأثور فقط وإنما يضاف إليه ما يتمتع به المفسر من فطنة هي ملاك الفهم، تدرك مكامن الآيات وخفايا معانيها، وعندما يقدر المفسر من فطنة هي ملاك الفهم، تدرك مكامن الآيات وخفايا معانيها، وعندها يقدر المفسر على تنويع التفسير، وتطويره، فيتمكن من ملامسة مراد الله من آياته، وعندها يقدر على تفجير المعاني القرآنية ذات الدلالات العميقة، ولا غرابة أن النص حمّال لوجوه، ولن يفقه المفسر كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها (5). هذه بعض الخصائص القرآنية كمادة للتفسير، وتفترض الجمع بين الأثر والرأي كما رأينا. فما هي مميزات التفسير ذاته.

مميزات التفسير :

إن مادة التفسير تخضع لأصول أساسية يلتزم بها كل من طمحت نفسه لتفسير الآيات القرآنية، سواء أكان من أصحاب المنهج الأثري، أم من أصحاب المنهج العقلي، من هذه الأصول :
- ردّ الآيات بعضها إلى بعض لفهم معانيها، لأن في القرآن كثيرا من النصوص يتوقف فهم دلالاتها واستنباط معانيها على القرآن نفسه لذا لا يمكن لأي مفسر أن يستغني عن هذا العلق النفيس.

— فهم الرسول للنص هو المصدر الثاني بعد القرآن، بمقتضى قوله عز وجل : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» (6) وقوله : «وما أنزلنا عليك

الكتاب إلا لتبينَ لهم الذي اختلفوا فيه(7) وما أشبه ذلك من أي القرآن التي أمر فيها الله رسوله بالبيان والتوضيح. وقد كان صلى الله عليه وسلم يبين لصحابته ما أشكل عليهم من الآيات، إضافة إلى أن في السنة أحكاما جديدة لقضايا لم يرد في القرآن حكمها ولا تفصيلها «أبان فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله معنى ما أراد»(8).

- معرفة مناسبات النزول، وهي حوادث وأسئلة ووقائع نزل لأجلها القرآن، ومصدر معرفتها النقل عن عاصر نزول الوحي أو شاهد تلك المناسبات، أو سمع عنها والمفسر يحتاجها لأنها رافد أساسي في فهم النصوص، وللعمل بمقتضى القاعدة الأصولية : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أو القاعدة المعاكسة : العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

كل هذه الميزات لمادة التفسير وغيرها كالقراءات والإجماع... توجب على المفسر اتباع المنهج الأثري، والطبري أحد المفسرين الذين التزموا هذا المنهج لأنه علم كما نعلم نحن أن تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي، وحيث جاء جزئيا فمأخذه على الكلية لا يفي بالمعنى، فتبين بعد الإستقراء أنه محتاج إلى كثير من البيان والسنة على كثرتها وكثرة مسائلها إنما هي بيان للكتاب، فإن الصلاة والزكاة والحج وأشباهاها لم يتبين جميع أحكامها في القرآن، وإنما بينتها السنة، وكذلك العاديات من الأنكحة والعقود والقصاص والحدود وغيرها(9).

هل اتباع الطبري للمنهج الأثري ألغى شخصيته العلمية، وأفقده أعمال الرأي؟

الجواب نعرفه من خلال دراسة منهجيته التفسير به،

والتركيز على توظيفه لكلمة «التأويل» في موسوعته.

منهجية الطبري في التفسير :

عندما نقرأ تفسير الطبري ونمعن فيه النظر أول ما يتبادر للذهن أنه إذا عزم على تفسير الآية يقول : «القول في تأويل قوله تعالى» ثم يفسر الآية بالقرآن إن توفر له ذلك، ويفسرها بالسنة، ويستشهد على ما قاله بما أثر عن الصحابة والتابعين، وله موقف خاص مما أثر في التفسير عن السلف إذ يعتبره حجة لا يجوز التخلي عنها، ولا يجوز تجاوزها إلى الرأي المحض (10) حتى أنك تشعر أنه رفع اجتهادات السلف في التفسير إلى منزلة السنة. وهذا الرأي الذي يميل إليه الطبري يعتبر الحكم العام عند أغلب علماء المسلمين من مفسرين وفقهاء، وعلماء الأصول، الذين بينوا أن ما أثر عن السلف إن هي إلا اجتهادات، فرضتها ظروف خاصة، ووقائع مختلفة تتغير مع تغير الزمن وتتطلب رؤى جديد وهذه الرؤى إعمال للفكر، قد يدخله الخطأ كما يدخله الصواب. زيادة على هذا فإن اجتهادات السلف كانت ومازالت محل خلاف بينهم، ولا نجد أحدا من السلف المجتهدين الواعين يلزم غيره باتباع رأيه، أو يرى أن ما توصل إليه حجة ملزمة تحرم مخالفتها، فكل منهم يكّد الفكر لعلّه يتوصل للكشف عن الحقيقة النسبية بناء على هذا لا يعقل أن تصبح تلك الاجتهادات في التفسير أصلا يعود إليه المفسر ضرورة حسب رأي الطبري. وقد أجمع «الكل على أن مذهب الصحابي في مسائل الإجتهد لا يكون حجة على غيره من الصحابة المجتهدين إماما كان أم حاكما مفتيا» (11). فإذا كان اجتهاد الصحابي لا يكون حجة على زميله في عصره وهم يعيشون نفس الأحداث تقريبا، فكيف يكون حجة ملزمة لمن أتى بعده وفي عصر تتجدد فيه الأحداث وتفترض استنباط الأحكام الملائمة لها، ولا تستعين برأي السلف إلا متى دعت

الحاجة إليه، وبهذا تستمر حركية الاجتهاد، وتتجدد قراءة النصوص، وتغلق الأبواب أمام التقليد، و التعطيل، ولا تنسى أن الإسلام أسس لحرية الفكر ولحركيته، فاستقل العلماء كل برأيه، وحصل التلاقح العلمي، دون أن يفرض طرف أراءه على الآخر، فتنوعت المغارف، ونشأت الشخصية العلمية على حب الإستقلالية من جهة، ومن جهة أخرى على حسن الاستماع إلى الآخر واحترام آرائه، وهكذا تتسع دائرة المعرفة، ويختص كل عصر بمجتهديه الذين يبحثون في قضاياهم ويجدون لها الحلول المناسبة، بهذا المنهج يقضي على الجمود والتقليد والتخلف وتنهض الشعوب.

نظرا لما ذكرت فإننا لا نسلم بما ذهب إليه الطبري فيما يتعلق بمأثور السلف في التفسير، ودليلنا عليه من الكتاب قوله تعالى : «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا(12)»، ومن الأثر نستدل بأفعال الصحابة وهم قدوة، والقدوة في رأيي أن نتبع منهجهم، فنصنع كما صنعوا نقلب الرأي في النص، ونختلف في القضايا كما اختلفوا فننتج بدورنا أعمالا جديدة، لا أن نلتزم بأقوالهم في التفسير ولا نتجاوزها إلا أن دعوة الطبري للإلتزام بأقوال السلف لم تنف استقلالية الرجل العلمية وإعماله للرأي، فجمع في موسوعته بين الاتباع والإبداع، رأينا الإتياع فأين الإبداع؟

الطبري والإبداع :

يتوجه الطبري بالنقد لمن ترك التفسير بتعلّة الخوف من الوقوع في الزلل فيقول : «وأما الأخبار التي ذكرنا عمّن ذكرنا من التابعين بإحجامه عن التأويل فإن فعل من فعل ذلك منهم كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل، والحوادث، مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه إلا بعد إكمال الدين لعباده، وعلمه بأن الله في كل نازلة، وحادثة، حكما

موجودا بنص أو دلالة»(13). نفهم من كلامه هذا أنه يدعو دعوة صريحة للجرأة على التفسير فإن لم تجد في النص فاستنبط من الدلالة، ويتضح لنا ذلك أكثر في النقاط الثلاث التي سأطرحها، وستبين لنا أن الطبري مبدع حقا.

(1) اعتماده على المنهج اللغوي :

ينطلق الطبري في تفسيره من ظاهر النص كحقل للمنطوق يدرسه جيدا، ويستنبط منه المعاني والأحكام، فيستخلص ما يهدف إليه عن طريق الإجتهدات العقلية، ومتى أحكم الظاهر تجاوزه لاستنكاه الباطن نزولا عند الرأي القائل للمطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. وسيله للإجتهد المنهج اللغوي فينتقي الطبري من أشعار العرب أبينها وأفصحها، ومن نثرها أجمله وأحسنه، يستعين بها على فهم النص، وهو يرى أن «كتاب الله - جل ثناؤه - نزل بأفصح لغات العرب وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذ من لغاتها وله في الأفصح والأشهر معنى مفهوم ووجه معروف»(14). وقد امتاز في استناده إلى المنهج بميزة يكاد يختص بها تتمثل في أنه جعل النص الأساس وجعل اللغة خادمة له، وبين أن الغاية من البحوث اللغوية الكشف عن معاني الآيات، أو ترجيح أصح الأقوال وأقواها أدلة، أو تحديد مدلولات الألفاظ والمعاني، فكانت اللغة عنده وسيلة يعبر من خلالها للوصول إلى مراد الله من النص(15)، وبذلك لم يقع في الخطأ الذي وقع فيه الكثير ممن جعل البحوث اللغوية الأصل والنص هو الفرع، وعوض أن توضح معاني النص حجبتها، وأصبحت متحكمة حتى قال محمد عبده : «إذا كان النحو وجد لمثل ذلك فليته لم يوجد»(16)، وفي هذا المجال كان الطبري مبدعا حقا في حسن استغلاله له في التفسير من ناحية، وكان متبعا من ناحية أخرى للسلف لأن ابن عباس أصل له بعبارته التالية : إذا

تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي وكذلك فعل عمر ابن الخطاب حيث دعا العرب للاستعانة بديوانهم «الشعر» لفهم النص(17).

2) الطبري ينقد السلف :

رأينا أن الطبري يعتمد مآثور السلف كأصل من أصول التفسير التي لا ندحة عنها للمفسر، ومع ذلك تجده في تفسيره «لا يقتصر على مجرد الرواية بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال ويرجح بعضها على بعض، ويقبل البعض ويرد البعض الآخر مستندا إلى الأدلة القوية، ولا يتردد في نقد الثقات من أئمة التفسير كمجاهد ورد آرائهم من ذلك مثلا أن مجاهد فسر الظن في قوله تعالى : «إن ظننا أن يقيما حدود الله»(18) بأنه اليقين، والطبري يدي برأيه في المسألة فيبين مفهوم الكلمة «ظنا» اعتمادا على السياق العام للآية فيقول : «وقد وجه بعض أهل التأويل قوله «ظنا» إلى أنه بمعنى إن «أيقنا»، وذلك ما لا وجه له لأن أحدا لا يعلم ما هو كائن مستقبلا إلا الله تعالى ذكره، فإن كان ذلك كذلك فما المعنى الذي به يوقن الرجل والمرأة أنهما إذا تراجعا أقاما حدود الله ولكن معنى ذلك كما قال تعالى ذكره : «إن ظننا» بمعنى طمعا بذلك ورجواه»(19) وهذا في رأي أعمال للرأي من الطبري. كما يلاحظ إعماله للرأي أيضا في ترجيحه للأقوال بعضها على بعض من ذلك مثلا تفسيره لقوله تعالى : «فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»(20).

إن الطبري يعرض حوالي أربعة وثلاثين قولاً قيلت في تأويل الآية ويعقب بقوله : «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال معنى ذلك أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا ورزق وعمل وأجل وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله «حتى جاءت رسلنا يتوفونهم قالوا أينما

كنتم تدعون من دون الله» فأبان باتباعه ذلك قول «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب» أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيا عليهم في الدنيا أن ينالهم لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم، ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب أو ممّا قد أعدّ لهم في الآخرة لم يكن محدودا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم لأنّ رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة وأنّ عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه فبين بذلك أن معناه ما اخترنا من القول (21) والملاحظ أنه في ترجيحه للأقوال يستند إلى الأدلة والبراهين وهذا إعمال للعقل أيضا.

3) التأويل عند الطبري :

جاء العلماء القدماء المهتمين بالعلوم الإسلامية يرون أن الطبري استعمل التفسير والتأويل في نفس المعنى لأنهما من المترادفات عنده، ولأنهما يفضيان إلى نفس المراد من النص وهو الكشف والإبانة والإفصاح عن المراد من المفردات ومن المعاني. ما مدى صحة هذا القول؟ وما مدى مطابقته لما ورد في تفسير الطبري؟

لا يمكننا الوقوف على حقيقة استخدام الطبري لكلمة التأويل إلا بعد الإشارة إلى الفرق بين مدلولي التفسير والتأويل، وبعد معرفة مدى احترام الطبري لذلك الفرق.

اختلف العلماء في تحديد الفرق بين التفسير والتأويل اختلافا نتجت عنه أقوال كثيرة تختار منها ما يلي :

- 1) التأويل والتفسير من المترادفات فهما بمعنى واحد (22)
- 2) التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني كتأويل الرؤيا، والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها، والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره

يستعمل في الجمل(23).

(3) التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا... والتأويل ترجيح أحد المحتملات دون القطع.

(4) التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أ مجازا ... والتأويل تفسير باطن اللفظ.

(5) التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية(24) من خلال هذه الأراء نلاحظ أن التفسير أعم من التأويل، ولكن للتأويل خصائص ميزته عن التفسير، من ذلك علاقة التأويل بتحديد المعاني بعد صرفها عن الظاهر، وهذا يحتاج إلى التدبر وإعمال للعقل للوصول إلى الوجوه التي يحتملها النص، ولا أعتقد أن الطبري تخفي عليه الفروق بين التفسير والتأويل، ويخفي عليه ن النص حمال لوجوه. بناء على هذا فإن الإدعاء بأن الطبري يسوي بين التفسير والتأويل في موسوعته يحتاج إلى إعادة نظر تتصف بشيء من الدقة، حتى تخرج تلك الصفة من العموم الذي لا يخصص.. صحيح أن الطبري استعمل لفظ التأويل مساويا للفظ التفسير والدليل على ذلك أنه رصع بها كل فصل من فصول تفسيره فيعنون له بقوله : «القول في تأويل قوله تعالى كذا، كذا» وهو يقصد من قوله هذا الكشف عن دلالات الألفاظ والمعاني إلا أن صنيعة هذا لم يمنعه من استخدام التأويل لترجيح المعاني، أو لصرفها عن الظاهر المستحيل، أو لإتباع معاني التأويل الواردة في القرآن، لذك لا أظن أن الطبري يغفل خصوصيات التأويل فيجعله مساويا للتفسير في كامل موسوعته، وهو رجل اللغة والفقه، وصاحب الإمام الشافعي، وصاحب مذهب الطبري الذي لم يصل إلينا كما وصلت غيره من المذاهب وحتى يتأكد لنا أن الطبري جمع في تفسيره بين الرواية والدراية أذكر بعض الأمثلة التي تبين حقيقة استخدام الطبري للتأويل.

توظيف الطبري للتأويل :

من ذلك مثلاً : استناده على المجاز لتأويل الكلام فيقول : «القرآن نزل بلسان العرب... ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه وإن كان مسببه غير الذي وجد منه أحياناً، وأحياناً إلى مسببه وإن كان الذي وجد منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذي يكتسبه العبد كسباً ويوجده الله جلّ ثناؤه عينا منشأة... بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسباً بالقوة منه عليه والإختيار منه له وإلى الله جلّ ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيراً» (25).

«وهذا ردّ على من ذهب إلى نسبة الفعل — كسباً وإيجاداً — إلى الإرادة الإنسانية الحرة على حسب ما ذهبت إليه القدرية مستدلين بقوله «ولا الضالين» من نسبة الضلال إليهم وصدوره عنهم، بإرادتهم الحرة والأصل إضافة الشيء إلى فاعله حقيقة، فينكر الطبري هذا الإستدلال بما يلفت ذهن المفسر إلى النظم القرآني هنا حيث جاء على أسلوب المجاز العقلي جرياً على تصاريف كلام العرب في البيان من إضافة الفعل للمتسبب دون الموجد، وأحياناً العكس، وإن كان المتسبب في كسبه هو الإنسان قوة واختياراً، والمجاز ضرب من التأويل بل هو التأويل نفسه» (26).

— من أدلتنا على أن الطبري يطبق التأويل بالمعنى المخالف للتفسير — أيضاً — استعانتة بالنظم القرآني ليؤوّل الكلام بما يدلّ أوله على آخره وآخره على أوله فيقول في قوله تعالى : «قل الدنيا متاع قليل والآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلاً» (27) «قل يا محمد لهؤلاء القوم الذين قالوا : «ربّنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب» عيشكم في الدنيا وتمتعكم بها قليل، لأنها فانية وما فيها فان «والآخرة خير» يعني نعيم الآخرة خير لأنها الباقية ونعيمها باق ودائم

بإضافة كلمة «نعيم» تأويلاً يتسق به معنى الكلام بما يدل أوله على آخره وآخره على أوله. ويعلل الطبري هذه الإضافة بقوله : «وإنما قيل : والآخرة خير، ومعنى الكلام ما وصفت من أنه معني بها «نعيمها» لدلالة ذكر الآخرة بالذي ذكرت به على المعنى المراد منه(28). والمراد من قوله أن ذكر الآخرة في مقابل متاع الدنيا قليل لفنائها، وما وصفت به الآخرة من الخيرية دلّ اقتضاء على أن المراد نعيمها الباقي لدوامها، وبهذه المقابلة دلّ أول الكلام على آخره وآخره على أوله.

وتحقق اتساق المعنى عن طريق الاقتضاء العقلي. وهذا ما يؤكد أن التأويل من أسس فهم النص، وإنه مما تقتضيه الاستعمالات العربية، فكان ضرورة بالنسبة للطبري وبالنسبة لغيره. زيادة على ما ذكرت فإن استقرار عبارات الطبري في مواضع من تفسيره تبين لنا أنه لا يرفض التأويل المستند إلى الرأي متى كان موضوعه لا يتعلق بالغيبات لأنها مما استأثر الله بعمله فيقول عند تفسيره لهذه الآية «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا» «يعني جلّ ثناؤه بذلك وما يعلم وقت قيام الساعة وانقضاء مدة أجل محمد وأمه وما هو كائن إلا الله دون سواه من البشر النذير أملوا إدراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة، وأما الراسخون في العلم فيقولون كل من عند ربنا لا يعلمون ذلك ولكن فضل علمهم في ذلك على غيرهم العلم بأن الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه»(29) أفهم من قوله هذا أن التأويل لا يمكن في الأمور الغيبية ولكنه ممكن فيما عداها وهو إقرار ضمنى من الطبري بإمكانية تأويل المتشابه الذي لا يتعلق بالغيب.

نلاحظ كذلك أن الطبري في تفسيره يسير مع التأويل وفق الإستعمالات القرآنية المتعددة والمختلفة للتأويل، فقد استعمل

التأويل في صرف اللفظ عن الظاهر، وفي بيان المتشابه، وفي الكشف عما يقع في المستقبل، وفي تصديق الرؤيا وفي توضيحها، وتوضيح الأفعال الغامضة كشأن موسى مع الخضر، وفي العاقبة وغيرها من الاستعمالات من أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى : «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وذلك أحسن تأويلا(30) يقول الطبري : «يعني بقوله جل ثناؤه... وأحسن تأويلا يعني أحمد موثلا ومغبة، وأجما عاقبة، وقد بينا فيما مضى أن التأويل التفعيل من تأوّل وأن قول القائل تأوّل تفعل من قولهم آل هذا الأمر إلى كذا أي رجع»(31) فالتأويل بمعنى العاقبة.

وفي هذه الآية : «هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله بقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق»(32) بقول الطبري : «إلا تأويله أي من ورودهم على عذاب الله وصليهم جحيمه وأشباه ذلك مما أوعدهم الله به»(33). وكلما تتبعنا تفسير الطبري لاحظنا أنه يلتزم بمفهوم لفظته التأويل حسب سياقها في الآية كتأويل الأقوال والأفعال والرؤى، فيتضح لنا بما لا بدع للشك مجالا إن الطبري لا يسوّى تسوية مطلقة بين لقطتي التفسير والتأويل ولكنه استعملها باستمرار في تفسيره — في نظري — لكثرة مفاهيم التأويل ولتردها في القرآن في العديد من السور في حين ذكرت كلمة التفسير مرة واحدة في سورة الفرقان : «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق أو أحسن تفسيراً»(34)، ونكاد نجزم بأن الطبري محق لما اختار عبارة التأويل عنوانا لتفسير كل آية أو كل جزء منها تاکد لنا أن الطبري جمع بين الأثر والرأي ولكنه لا يقبل التأويلات البعيدة عن الإستعمال العربي، أو تلك التي يكون فيها تعسف على النص بطريقة يحمل فيها المؤوّل النصوص ما لا تحتل،

فيخرجها عن مقاصدها الأصلية، ليؤيد مذهبه، أو ليرضي هواه مثلما فعلت الفرق الإسلامية حتى أصبحت كل فرقة تكفر الأخرى اعتماداً على تأويل القرآن «فيتبعون ما تشابه منه أي ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيها بوجوه التأويلات ليحققوا بآراءهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ما هم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق تلبسوا منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريح معانيه» (35) والعبارة للطبري وفيها إقرار بأن الراسخين في العلم لا تلتبس عليهم معرفة وجوه التأويل، وتصاريح المعاني وإنما يقع ذلك لمن قل زادهم المعرفي فيؤثر فيهم أولئك يتأويلاتهم الفاسدة.

وتجنباً للوقوع في مثل هذا النوع من التأويل لا يقدم الطبري الرأي على تفسير القرآن للقرآن، ولا على تفسير السنة للقرآن ولا على تفسير الصحابة للقرآن عليه بذلك يسد المنافذ على الذين في قلوبهم ميل على الحق وحيث عنه فيؤولون المتشابه للإحتجاج به على الباطل. لذلك لا يحق النظر في وجوه القرآن إلا لمن كان من أهل المعرفة، ومن القادرين على البرهنة ببراهين عقلية على تأويلاتهم، وعندها فقط يصبح التأويل ضرورة فرضتها الأحداث وطبيعة النصوص.

النتائج :

— إن الطبري لا يعتمد على التأويل إلا بعد أن يتوفر له الدليل القوي، ودور التأويل هو السعي إلى القضاء على التضاد الظاهري بين النصوص.

— الطبري في تفسيره يتبع الأثر ولا يلتجئ إلى التأويل إلا عند الضرورة، وهو مصيب في هذا الجانب لأن المنهج السليم في التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالسنة ثم المختار من أثر السلف، ثم أعمال الرأي، لأن تلك المراحل للتفسير تثير الرأي وتساعد على حسن الاستنباط.

- إن الطبري في منهجه هذا الجامع بين النقل والعقل يمثل من جهة حلقة جديدة في التفسير لأنه سبق إليه من طرف السلف كابن عباس ومجاهد وغيرهم الذين علوا بهذا المنهج في كل زمن وفي كل بلد. ويعتبر من جهة أخرى مبدعا في تفسيره من ناحية جمع الأقوال والترجيح بينها، ورفض مالا دليل عليه من العقل أو من النقل، وكذلك من ناحية نقد الرجال ونقد الروايات.

- إن الطبري في تفسيره لا يقف عند تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة أو بالأثر، وإنما يستعين أيضا بالقراءات وهو إمام فيها، ويعمل بالإجماع، ويروي الاسرائليات، ويحتكم إلى المشهور من كلام العرب، ويهتم بالمذاهب النحوية، ويعالج الأحكام الفقهية، ويخوض في مسائل علم الكلام، ولا يذكر ما من شأنه أن لا ينفع العلم به ولا أن يضر الجهل به. (36)

الهوامش :

- * أستاذة بالمعهد الأعلى لأصول الدين بجامعة الزيتونة.
- (1) مجلة الكرمل، العدد 1 سنة 1984.
- (2) ابن خلدون، المقدمة، ص 786 ط. بيروت 1979.
- (3) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 5 ص 352.
- فتحي الدريني دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر المجلد الأول، ص 147 ط. دار قتيبة دون تاريخ الطبع.
- (5) انظر، الإنتقان في علوم القرآن للسيوطي ج 1 ص 185، الطبعة الرابعة مصر، 1398هـ/1978، فالبرهان في علوم القرآن، للزركشي ج 2، ص 154 ط. دلة المعرفة، بيروت.
- (6) النحل / 44.
- (7) النحل / 64.
- (8) الشافعي ، الرسالة، ص 158.
- (9) الشاطي، الموافقات، ج 3 ص 367 دار المعارف بيروت.
- (10) الطبري، جامع البيان، ج 1 صص 92-93 ط. بولاق سنة 1235هـ.
- (11) الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج 4، ص 385 وما بعدها، ط دار الكتاب العلمية 1405هـ/1985م.

- (12) الكهف / 109.
- (13) جامع البيان، ج 1 ص 89 ط. بولاق.
- (14) جامع البيان ج 12، ص 322.
- (15) فتحي الدرين دراسات وبحوث في الفكر المعاصر، ص 212.
- (16) المنار، ج 1 ص 379.
- (17) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 14، ص 167 ط. تونس 1984.
- (18) البقرة : / 230.
- (19) جامع البيان، ج 4 صص 598 - 799.
- (20) الأعراف / 37.
- (21) جامع البيان، مج 8 ص 125-126 ط. بيروت.
- (22) السيوطي، الإتقان ج 2 ص 221 ط. 4 مصر 1398هـ/ 1978.
- (23) مقدمة التفسير للراغب، ص 402-403 بآخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.
- (24) الإتقان ج 2، ص 221 وما بعدها ط 4، مصر 1398/ 1978 وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ج 2 ص 149 وما بعدها، ط دار المعرفة بيروت.
- (25) جامع البيان، ج 1 ص 95 ط. بيروت.
- (26) فتحي الدريني دراسات وبحوث في الفكر المعاصر، ص 287.
- (27) النساء / 77.
- (28) جامع البيان، مج 4 ج 5 ص 109.
- (29) جامع البيان، ج 3 ص 122.
- (30) النساء / 59.
- (31) جامع البيان، مج 4 ج 5 ص
- (32) الأعراف / 53.
- (33) جامع البيان، مج 5 ج 8 ص 145.
- (34) الفرقان / 33.
- (35) جامع البيان، مج 3 ج 33 ص 118.
- (36) الذهبي، التفسير والمفسرون ج 1 صص 213 إلى 224 ط (2) دار الكتل الحديثة سنة 1396هـ/ 1976م.